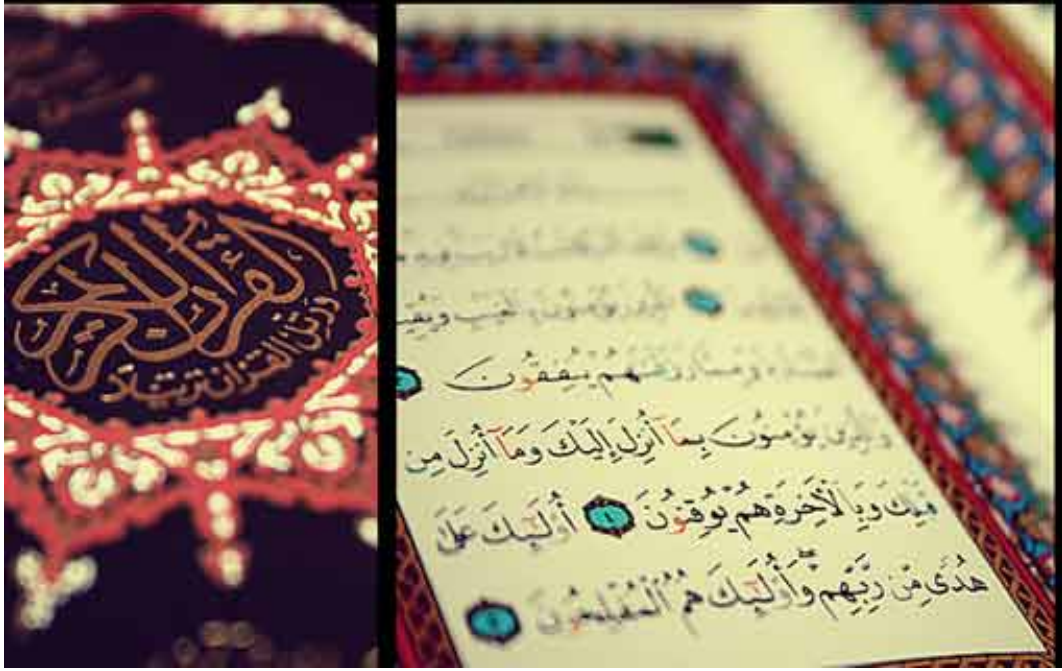


شريعتنا.. والبناء



لست هنا في هذه العجالة من القول، بسبيل أن أقيم الدليل على أن ديننا الذي ارتضاه الله لعباده وأتم عليهم به النعمة، يحمل المنهاج الشامل المتكامل المتوازن الذي يتسع للعاجلة والآجلة، والمادة والروح والعقل والقلب، فينظم شؤون الدنيا كما يوضح أمور الآخرة، وكل شيء عند الحكيم الخبير بمقدار.

ولكنني أود أن أتناول القضية من أبسط وجوهاها فأدعو بنقطة كل أولئك الذين ما يزال في نفوسهم شيء من الغبش حول هذا الموضوع، والذين يسوؤهم أن يكون الأخذ بالشريعة أهم مطلب من مطالب الشعوب الإسلامية، أن يقلبوا صفحات الكتاب العزيز، وهو كلي الشريعة وأصل أصولها، ليجدوا أن هذا الكتاب لم يفرض في شيء، وأن تناوله الحكيم لشؤون الدنيا والآخرة جميعاً يبدو أمراً بديهياً ومقولة لا تحتاج - مع الإنصاف المطلوب لسلامة الحكم، والتحرر من الهوى - إلى ذاك الذمّ في إقامة الدليل.

وإذا نظرنا في حديث رسول الله (ص) كان ذلك خيراً على خير، لما أن السنة هي البيان القولي والعمل للقرآن.

ولننظر على سبيل المثال في سورة البقرة ثاني سورة من سور القرآن، وهي سورة مدنية نزلت كلها بعد الهجرة، كما أنّها إحدى الزهراوين - البقرة وآل عمران - وفيها آيات هي من أواخر ما نزل، كما أن

ذَٰلِكُمْ قَوْلُهُ تَعَالَى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَعْتُمْ بَيْنَ يَدَيْهِ إِلَيَّ أَجَلٌ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْخُذْ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمْلِلَ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلْيُتَّقِ اللَّهَ بَالِ الْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رَجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشَّاهِدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى وَلَا يَأْخُذْ الشَّاهِدَاءُ أَنْ تَدَايَعْتُمْ وَلَا تَسْأَلُوهُ أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَيَّ أَجَلُهُ ذَٰلِكُمْ أَفْوَاطٌ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونُوا تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاللَّهُ يَعْلَمُ كُتُومُكُمْ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) (البقرة / 282)، ثُمَّ قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: (وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ

بَعَثُكُمْ بِعَظْمًا فَلَا يُؤْدِرُ الَّذِي أَؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبِيهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (البقرة / 283).

أعود مرّة أخرى إلى التذكير بأن قراءة هذين النصين.. مع التدبر والتجرد عن الرواسب المُستَكِنَّة تنشئ بكل يسر قناعة لمن أراد مقنعاً ولكن أين المنصفون؟؟

إنّ أمتنا مدعوة لأن تكون على غاية اليقظة عند بناء مجتمع العقيدة التي عنوانها الكلمة الطيبة "لا إله إلا الله، محمد رسول الله"، وعندها ما ليس عند غيرها من عوامل الإحكام في البناء وخصائص التنمية البشرية والمادية عندما تنهل من معينها الصافي في عقيدة حقة وشرعية منورة بتلك العقيدة، ولا عليها أن تفيد مما يصل إليه العقل - وهذا حقها - مما لا يتعارض مع ذلك المنهل العذب، علماً بأن أحكام العقل السليم المتحرر من سلطان الهوى: لا تتعارض أبداً مع كلام الله خالق العقل والمنعم به على الإنسان والحمد لله أولاً وآخراً على نعمة الإسلام.

أرأيت إلى العناية بالإنسان وحقوقه المالية وغيرها، وتنظيم هذه الحقوق في كتاب الله تعالى، تنظيماً يضمن لكل ذي حق حقه، كما يضمن سلامة العلاقة بين الإنسان في المجتمع الإسلامي وأخيه الإنسان، بحيث يكون للتعاون على البر والتقوى سلطانه على الجميع.

وهكذا يتلو التالي هذا الكلام الإلهي الحكيم وله - كما أخبر النبي (ص) - بكل حرف عشر حسنات، والحسنة بعشر أمثالها والله يضاعف لمن يشاء، ويقرأ ذلك المصلي في محرابه، والعالم في مسجده ومدرسته وجامعته، والطالب على مقعد الدرس وهكذا.

نصوص تنظم العلاقات المالية وغيرها بين الناس، ويؤجر التالي لهذه النصوص - على مجرد التلاوة - بكل حرف عشر حسنات؛ فما بالك إذا صحب التلاوة التدبر والعمل.

ترى أيّ باعث على الالتزام وتقديس الكلمة الربانية وإنشاء الحراسة للأحكام من داخل النفس قبل السلطة التنفيذية - أن لو تحرك الباعث القلبي - على صعيد الإحكام لبنية المجتمع والحيلولة دون الضعف والتخلخل؟

ومما تجدر الإشارة إليه بناءً على ذلك: أنّ الفارق بين هذا التنظيم في نصوص الكتاب العزيز وبيانه من السنة النبوية المطهرة: أنّ التشريع هنا يقوم على العقيدة مباشرة، بينما تقوم السنة بدور البيان والتفصيل، وقد يكون فيها تخصيص للعام وتقييد للمطلق إلى غير ذلك؛ فترى هنا الخطاب النديّ المثلث بالدعوة إلى البر بقوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا) إيداناً بأنّ على المؤمن أن يلتزم بالحكم بوصفه مؤمناً؛ فمن التناقض بمكان أن يؤمن بمنزل الشريعة، ويتعدى حدودها، فلا يعمل بأحكامها ولا يلقي لذلك بالاً.

وختمت آية المداينة بقوله تعالى: (وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)، أرأيت إلى هذه الومضة من ومضات الإعجاز: اتقوا الله، اتقوا غضب الله وعقابه بالعمل

بما أمركم واجتناب ما نهاكم، وهو سبحانه العليم بما يصلحكم وما فيه خيركم في الدنيا والآخرة فهو يعلمكم ويشرع لكم ما فيه مصلحتكم على وجه الحقيقة، وهو سبحانه بكل شيء عليم ومن ذلك علمه بما يصلح شأن عباده، وعلمه بمن يمثل ومن لا يمثل.

وختتم الآية الثانية بقوله تعالى: (وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ)، إيقاضاً للوازع الإيماني في النفوس، كيما تكون في أعماق المكلف - ذكراً كان أو أنثى - حراسة للتشريع الذي يحكم تصرفاته، إذ يرى بعدها: أن وجوده الذاتي مرتبط بالعمل بأحكام الشريعة التي قامت على تلك العقيدة الإيمانية الخالصة.

المصدر: كتاب بناء الأمة ومواجهة التحديات